١ - وقائع حياة الغزالى

نحن الآن فى القرن الخامس الهجرى..

فى هذا العصر امتلأت الحياة الثقافية بنشاط فكرى واسع .. فهناك الترجمات الكثيرة عن الفلسفة اليونانية..

وهناك ظهرت المذاهب الإسلامية المختلفة ، كما انتشرت حركة الاجتهاد .. فكان عصرًا عجيبًا .. مليئًا بالحركة والحيوية والحياة .. ولكن فى نفس الوقت كان عصرًا قد ازدحم بصراع المذاهب والمدارس المختلفة .. عصرًا مشوبًا بالقلق والتوتر .. وتعقدت أمور الفكر .. وبرزت فى الأفق أسماء فلاسفة الإغريق ، وكثر الجدل .. واشتد الحوار .. وكاد الناس فى ظل هذا المناخ أن ينسوا أن الإسلام دين بسيط للغاية .. سهل للغاية .. ليس بهذا التعقيد الذى جلبه الفلاسفة وعلماء الكلام .. وهواة الجدل والسفسطة..

وأن المسلمين فى عهد الرسول ﷺ ، قد أخذوا تعاليمه ببساطة.. فعلى المسلم أن يشهد بأن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه ، وأن يقيم الصلاة وأن يؤتى الزكاة ، ويصوم رمضان ، ويحج البيت إن استطاع إلى ذلك سبيلاً، هذه هى الأعمدة الخمسة للإسلام.. وآمنوا بها إيمانًا عميقًا .. فى ظل هذه المبادئ تكونت حضارة عجيبة ، وانطلق الإسلام بسرعة البرق .. يحطم إمبراطوريات عاتية ، لم

تستطع أن تقف أمام زحفه الساحق ، وفى خلال سنوات قليلة جدًا كان الإسلام يحتل رقعة واسعة من الأرض تمتد حتى حدود الصين شرقًا وإلى إسبانيا غربًا . . إمبراطورية شاسعة . . انتشر فيها الإسلام لما يحمله من بساطة فى الاعتقاد . . وبساطة فى التعامل . . وبساطة فى التشريع . . وبساطة فى السلوك . . وبساطة فى النظرة الواعية للحياة . .

وفى ظل هذه البساطة . . كان الإنسان المسلم بسيطًا . . قويًا . . مؤمنًا بذاته . . ومؤمنًا بحقوق الآخرين . . يجمع التعاطف والرحمة ولين الجانب للناس . وتربط مشاعرهم الإخاء والمحبة والسلام . . ثم يربط بين قلوب الجمع إيمان بإله واحد أحد . . فرد صمد . . لم يلد ولم يولد . . ولم يكن له كفوًا أحد . .

خلق الإسلام من الأمة الإسلامية أعظم أمة فى الوجود . . ولكن سرعان ما امتصت الحضارة الإسلامية الكثير من حضارات الشعوب الأخرى التى انصهرت فى بوتقة الإسلام . . وأذابتها فيها . . حتى إذا ما جاء القرن الخامس الهجرى . . برزت المذاهب المختلفة فى الفلسفة وشتى فروع المعرفة . . بجانب الاجتهاد الدينى وبجانب الدراسات حول أصول الإسلام المستمدة من القرآن والسنة الشريفة . . والتى أخذت أساسها على يد الأئمة الأربعة وتلاميذهم . .

وكان لابد أن تكون هناك خلافات فكرية . .

وكان لابد أن يكون هناك صراع بين المذاهب المختلفة . .

وكان لا بد أن تظهر الأحقاد والفتن نتيجة ما يخلقه الصراع الفكرى بين الناس . . وابتعدوا أو كادوا عن المصدر العظيم لقوة الإسلام . . وهو البساطة . .

وقد زاد من اشتعال هذا الصراع إذكاء الخلفاء والحكام العباسين له . .

ومن هنا كان لابد من ظهور شخصية قوية الحجة . . قوية البيان . . عظيمة السلطان على قلوب الناس . . تعيد الناس إلى النبع الأول . . إلى الإسلام فى فطرته وبساطته . . وكان هذا الرجل هو حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالى . .

ولكن الغزالى وهو يواجه هذا المجتمع الجديد لم يكن يأتى من فراغ . . فقد ولد فى هذا العصر ، وشاهد ما يموج فيه من مذاهب ونحل وملل . . وكان لا بد له أن يخوض تجربة هائلة . .

فعليه أن يدرس الإسلام دراسة واعية مستنيرة . .

وعليه أن يدرس كل ما فى عصره من معارف وعلوم . .

وعليه بعد ذلك أن يختار الطريق . . فى مجتمع بلغ فيه الفكر منتهاه ، وبلغت فيه الدراسات الفقهية والأدبية والفلسفية قمة النضوج . .

ففى ظل هذا المجتمع انصهرت فيه الحضارة الفارسية والهندية والصينية والرومانية والإغريقية . . والحضارة المصرية القديمة . . ونشأ

من كل ذلك حضارة جديدة أساسها القرآن والسنة ولكنها لم تخضع - وإن تأثرت - إلى أى حضارة من الحضارات التى ذابت فيها . . بل طورت ما دخلها من تراث الحضارات إلى واقع أكثر تطورًا واستنارة . . ولكن بالضرورة كان لا بد أن تظهر الفلسفات المختلفة . . وكان لابد للإسلام أن يواجه هذه المذاهب بنفس أسلحتها . .

فبرز علم الكلام . .

وظهرت الفلسفة الإسلامية . .

وظهرت القضايا العديدة التى يجب أن تناقش . . كالنفس . . والروح . . وعلاقة الجسد بالروح . . وكيفية الوصول إلى الحقيقة . . وتوغلت الدراسات فى محاولة لدراسة ما وراء الطبيعة . .

لنعد إلى الإمام الغزالى . . واسمه محمد بن محمد بن محمد ابن أحمد الطوسى . . ولد فى طوس . . وهى مقاطعة فى خراسان شمال شرقى إيران سنة ٤٥٠هـ . . كان والده فقيرًا . . وكان رجلاً صالحًا يعمل فى صناعة الصوف . . وكان محبًا لعلماء الدين . . وكان منتهى أمله أن يرزقه الله ولدًا يكون عالمًا متفقهًا فى دينه مثلهم . . وكان الرجل شديد التأثر بهؤلاء العلماء وهو يستمع إليهم فى حلقات الدراسة . . وكثيرًا ما كانت تفيض عيناه بالدمع . . عندما تهزه موعظة أو نصيحة ، ولكن الرجل عاجله الموت ، فأوصى بالغزالى وأخيه أحمد أحد رجال الصوفية ليقوم برعايتهما . . وقام الرجل برعايتهما على أكمل وجه . . وكان صوفيًا فقيرًا . . ونفد المال الذى تركه الأب

فما كان من هذا الرجل الصالح إلا أن نصح الأخوين أن يكونا من طلبة العلم حتى يضمنا القوت الذى يعينهما على الحياة.. وفعلا ذلك.. وبذلك أسدى هذا الرجل الصالح للإسلام هذا الإنسان الذى سوف يصبح علمًا من أعلام الإسلام الذين قدموا للفكر الإسلامى كل ما هو جدير بالاحترام والتقدير .. عملاً بوصية والده.. فقد قال فى وصيته له:

« إن لى لتأسفًا على تعلم الخط ، وأشتهى استدراك ما فاتنى فى ولدى هذين فعلمهما ، ولا عليك أن تنفد فى ذلك جميع ما أخلفه لهما »..

ولا أحد يعرف بالضبط اسم هذا الصوفى الذى أوصاه الوالد ليرعى أولاده .. كما لا نعرف بالضبط فى أى سن مات الأب وترك ولديه أحمد ومحمد .. وإن كانت الدلائل تشير إلى أنه مات وهما فى سن صغيرة .. وأغلب الظن أن هذا الصوفى قد قام بتعليمهما بنفسه مبادئ الكتابة والقراءة وتحفيظهما القرآن الكريم ، وبعض أمور الفقه البسيطة .. ولما لم يتيسر للشيخ دوام رعايته لهما بعد نفاد المال الذى تركه لهما والدهما .. أشار إليهما بالدخول فى إحدى المدارس فى البلدة .. وهذه المدارس كانت توفر للتلاميذ ما يعيشون به .. وقد كانت هذه المدراس منتشرة فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى.. وقد درس أبو حامد الغزالى فى هذه المدرسة الفقه على مذهب الإمام الشافعى .. وكان أستاذه أحمد بن محمد الراذاكانى ، وأخذ بعد ذلك

على الإمام أبى نصر الإسماعيلى فى جرجان ، ثم رجع إلى طوس . .

وبعد ذلك قدم الغزالى إلى نيسابور . . حيث ازدهر فيها العلم، وتتلمذ على شيخ الحرمين . . ومات إمام الحرمين . . وكان الغزالى فى الثامنة والعشرين من عمره، فتوجه إلى الوزير نظام الملك . . حيث شاهده فى مناقشات مع بعض العلماء والفقهاء فقربه إليه ، وأصبح الغزالى مدرسًا فى المدرسة «النظامية» ببغداد . . وكان التدريس بهذه المدرسة منتهى أمل أى عالم من العلماء . . وهنا بدأت عبقرية الغزالى فى الظهور، وقربه إليه الخليفة العباسى المقتدى باللَّه، والذى شجعه على أن يكتب مؤلفه «المستظهرى» والذى يرد فيه على الباطنية . .

ولكن الغزالى الذى وصل إلى هذه المرتبة من العلم بدراساته المختلفة ، وتعمقه فى دراسة كل ما فى عصره من علوم ومعارف، لم يقنع بما وصل إليه من مجد وظيفى . . ولم يقنع بأن اسمه انتشر فى كل مكان كعالم عظيم ، وفقيه متعمق ، ومحدث لبق . . ومجادل خطير . . كان هناك شىء يؤرقه . . كان يشعر فى أعماق نفسه بأن هناك طريقا يريد أن يصل من خلاله إلى الهدف الكبير . .

والهدف الكبير هو الوصول إلى الحقيقة . .

إنه يريد أن يعرف . . وطريق المعرفة شائك . .

إنه يريد أن يصل إلى اليقين . . ولكن كيف؟

لقد عذبه الشك . .

نعم عذبه الشك . . إنه رغم ما حصله من علوم ومعارف وما درسه من فلسفات العصر وآدابه لم يزد إلا شكوكًا . . رغم ما وصل إليه هذا العصر من تقدم فى مختلف العلوم . . كالفلك والرياضيات والطب والكيمياء والفلسفة والتصوف . .

ولقد نضجت هذه الدراسات كما أسلفنا بفضل تشجيع خلفاء بنى العباس لها . . وما أغدقوا من أموال على المترجمين الذين ترجموا إلى العربية الكثير من الأبحاث عن الهندية والفارسية واللاتينية والعبرية والسيريانية ، واليونانية . .

إن الغزالى العالم والفقيه . . ودارس الفلسفة ، والذى يستطيع بقوة منطقه ورجاحة عقله أن يجادل الجميع . . ويهاجم المعتزلة برأى أهل السنة ، ويهاجم أهل السنة برأى المعتزلة ، ويناقش الأشاعرة ، وعلماء الكلام . . كان يشعر فى قرارة نفسه القلقة أنه فى حاجة إلى الاستقرار واليقين . . وأنه فى حاجة إلى أن يصل إلى شاطئ آمن وأن يملأ اليقين عقله وقلبه جميعًا . .

ولكن كيف؟! لنسمعه يقول فى كتابه «المنقذ من الضلال»:

« لقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبى وديدنى . . من أول عمرى . . غريزة وفطرة من الله وضعتا فى جبلتى ، لا باختيارى وحيلتى ، حتى انحلت عنى رابطة التقليد ، وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد من الصبا . . إذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء إلا على التنصر ، وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا

على التهود ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام ، وسمعت الحديث المروى عن رسول الله ﷺ قال : كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه . . فتحرك باطنى إلى حقيقة الفطرة الأصلية ، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والأستاذين والتمييز بين هذه التقليدات ، وأوائلها تلقينات ، وفى تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات . . فقلت فى نفسى أولاً: إنما مطلوبى العلم بحقائق الأمور . . فلا بد من طلب حقيقة العلم ، ما هى ؟ فظهر لى أن العلم اليقينى هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافًا لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك . . بل الأمان من الخطأ ينبغى أن يكون مقارنًا لليقين مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه مثلاً من يقلب الحجر ذهبًا . . والعصا ثعباناً . . لم يورث ذلك شكًا وابتكارًا ، فإنى علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة ، فلو قال لى قائل : لا . . بل الثلاثة أكثر ، بدليل أنى أقلب هذه العصا ثعبانًا . . وقلبها . . وشاهدت ذلك منه لم أشك - بسببه - فى معرفته ولم يحصل على منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه . . فأما الشك فيما علمته فلا . . ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ، ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ، ولا أمان معه : فليس بعلم يقينى » . .

وواضح من هذا الكلام أنه يريد أن يصل إلى يقين كاليقين الرياضى . . فلا أحد يشك أن العشرة أكبر من الثلاثة مهما حاول من صنوف الإقناع أن يقنعنى بغير هذه البديهة . .

ولكن كيف يصل إلى هذا اليقين الشبيه باليقين الرياضى؟

إذن عليه أن يعيد النظر فى العلوم حوله . . وعليه أن يقوم بدراستها دراسة متعمقة . . لعله يجد فى أحدها أو فيها جميعًا ما يوصِّله إلى اليقين . . وتلفت فوجد أن عليه أن يتعمق فى هذه العلوم . .

- الفلسفة . .
- الباطنية . .
- المتكلمون . .

ولكنه وجد أن هذه العلوم جميعًا لا تفى بحاجة الإنسان إلى المعرفة الحقة . . فالفلسفة تؤدى إلى طريق مسدود . . لأن العقل كوسيلة للتحصيل ليس بقادر على الإحاطة بكل شىء . .

« ثم إنى فرغت من علم الفلسفة وتحصيله وتفهمه ، وتزييف ما يزيف منه . . علمت أن ذلك أيضًا غير واف بكمال الغرض ، وأن العقل ليس مستقلا بالإحاطة بجميع المطالب ولا كاشف الغطاء على جميع المعضلات» . .

هكذا تحدث الغزالى فى كتابه «المنقذ من الضلال» . .

وفى كتابه أيضًا تراه يتحدث عن الباطنية . . الذين يدعون أن علمهم مستمد من الإمام المعصوم . . فما وجد عندهم إلا ما وجده فى الفلسفة . . وأنها مفسدة وخرج بهذه النتيجة . .

« لا حاصل عند هؤلاء ولا طائل لكلامهم . . ولولا سوء فترة الصديق الجاهل ، لما انتهت تلك البدعة - مع ضعفها - إلى هذه الدرجة ».

إنه يتحدث عن هؤلاء القلة من الناس الذين ضلوا وأضلوا، فقال أيضًا فى «المنقذ من الضلال»:

« إن هؤلاء ليس معهم شىء من الشفاء المنجى من ظلمات الآراء، بل مع عجزهم عن إقامة البرهان على يقين الإمام طالما جربناهم ، فصدقناهم فى الحاجة إلى التعليم ، وإلى المعلم المعصوم ، وأنه الذى عينوه ، ثم سألناهم عن العلم الذى تعلموه من هذا المعصوم ، وعرضنا عليهم إشكالات فلم يفهموها فضلاً عن القيام بحلها ، فلما عجزوا أحالوا على الإمام الغائب وقالوا:

إنه لا بد من السفر إليه ، والعجب أنهم ضيعوا عمرهم فى طلب العلم وفى التبجح بالظفر به ، ولم يتعلموا منه شيئًا أصلاً . . كالمتضمخ بالنجاسة يتعب فى طلب الماء حتى إذا وجده لم يستعمله . . وبقى متضمخًا بالخبائث».

فهو إذن لم يجد ضالته فى هذه المذاهب الفلسفية المختلفة . . بل إنه ألف كتابه «تهافت الفلاسفة» يثبت فيه عدم جدوى الفلسفة . . وهذه الفلسفة وإن كانت لها بعض المنافع إلا أن مضارها أكثر من منافعها . .

وعلى كل فقد قلت إن الغزالى جاء فى عصر ملىء بالحركات الفكرية والمذهبية والصراعات السياسية ، فبينما كانت فى الشرق الدولة العباسية ، كانت فى المغرب الدولة الفاطمية التى تناوئها وتناصبها العداء ، وتحاول انتزاع السلطات منها . .

ونرى هناك **المعتزلة** . .

ويرجع تاريخ هؤلاء المفكرين إلى القرن الثانى الهجرى فقد كان الحسن البصرى يجلس يلقى دروسه على الناس . . وذات يوم تعرض الحسن البصرى للخوارج . . وهل هم مسلمون أم أنهم خرجوا على الإسلام . .

وقال تلميذه واصل بن عطاء «بالمنزلة بين المنزلتين» ، وبذلك عارض أستاذه . . وأخذ يتخذ من المنهج العقلى وسيلة للوصول إلى الأحكام على الأشياء .

وهنا رد عليه الحسن البصرى . . وقال كلمته الشهيرة « لقد اعتزلنا واصل » . . ومن هنا جاء لفظ المعتزلة . .

فقد كان واصل يرى أن مرتكب الكبيرة مؤمن عاصٍ . .

وبدأت مدرسة المعتزلة . . التى كان لها تلاميذها وأتباعها والمؤمنون بها . . وفرضوا أنفسهم على الحياة العامة . . بل تحمس لها فيما بعد المأمون الخليفة العباسى . . إلا أن المتوكل عند تولى الحكم أدار لهم ظهره . . وحاربهم محاربة لا هوادة فيها . . مما أعطى

الفرصة لخصومهم أن ينقضوا عليهم ويحرقوا كتبهم . . ومن هنا فلم يكد يأتى منتصف القرن الرابع الهجرى . . إلا وقضى على مدرستهم الفكرية . .

وأهم ما يميز هؤلاء المعتزلة أنهم كانوا يقرون النصوص القرآنية بما يتلاءم مع فكرة الألوهية المجردة . .

وقد ناقش المعتزلة فكرة العدل والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . .

ولنوضح بسرعة . . وببساطة أيضًا . . وبدون تعقيد . . هذه الأفكار التى أثرت فى المجتمع الإسلامى، وما يزال صداها إلى اليوم.

فالله عادل . . وما دام عادلاً فلا يمكن أن يصدر عنه أى شر . . ومن هنا فإن ما يأمر به الإسلام وما ينهى عنه لا بد أن يتفق مع العقل . . وإذا كان الإنسان مسئولاً عما يفعله . . وأن الله عادل . . فلا بد أن يثاب المرء على حسناته ويعذب على سيئاته . .

وأهم آرائَهم أيضًا أن الذى يرتكب الجرائم أو الكبائر يعتبر من العصاة . . وهذا العصيان لا ينفى أنهم مؤمنون . . وأنهم يحاسبون على هذه الكبائر ، ويصبحون فى منزلة بين المنزلتين . . لأن الإيمان فى قلوبهم . . كما أن من مبادئ المعتزلة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . . ولا يكتفى فى ذلك بالكلام . . ولكن لا بد من تحقيق هذا الأمل فى المجتمع الإسلامى ليصبح مجتمعًا معطرًا بأريج العدل والرحمة . . والأمن والأمان حتى لو استخدم فى سبيل ذلك القوة.

ولا شك أن هذه المدرسة أسدت الكثير إلى الإسلام . . لأنهم حاولوا أن يجعلوا للعقل هذه المنزلة الكبيرة . . وأن يجعلوا الدين غير متناف مع قواعد العقل ، ولكن العيب الذى أخذ عليهم أنهم حاولوا تسخير السياسة فى خدمة مذهبهم ، فارتقوا حين وقف بجانبهم الخليفة المأمون ، وقضى عليهم عندما وقف ضدهم المتوكل . . فحاربهم حربًا لا هوادة فيها . . كما أنهم عقَّدوا الأمر أكثر ما ينبغى . . فالإسلام سهل للغاية . . بسيط للغاية . . بل إن إعجازه فى هذه البساطة . . فقد أرهقوا العامة بالمصطلحات الفلسفية وأدخلوهم فى متاهات الجدل والنقاش ، وهذا ما حدا بالإمام الغزالى أن يحمل عليهم بعنف وشراسة فيما بعد ، كما أنه أيضًا هاجم الفلاسفة الذين امتلأت قواميسهم بالألفاظ الغامضة . . وآلى على نفسه أن يكشف زيف الفلسفات المختلفة . . ويوضح كل ذلك للعامة بأسلوب سهل . . وهذا ما حدا بالفلاسفة إلى مهاجمته وخاصة ابن رشد الذى جاء بعده بمائة عام تقريبًا . .

الأشاعرة:

وقد ظهرت مدرسة الأشاعرة فى منتصف القرن الرابع الهجرى . . وهذه المدرسة وجدت فى «الوسط» خير الحلول . . فلا مجال للجنوح إلى أقصى اليمين أو إلى أقصى الشمال . . واتخذت من المنطق الأرسطى وسيلة للوصول إلى هدفهم . . وقد تأثر أستاذهم أبو الحسن الأشعرى بمنطق أرسطو . . وكان وسيلته فى الجدل . . وهذه المدرسة

تربَّتْ تحت ظلال فلسفة المعتزلة . . ولكنها خرجت عنها لتطرفها . . واتخذت لنفسها أن خير الأمور الوسط . . لأن أبا الحسن الأشعرى مؤسس هذه المدرسة كان تلميذًا لأبى على الجبائى المعتزلى . . وقد بلغت هذه المدرسة الذروة على يد الإمام الغزالى الذى اعتنق مبادئها . . وكان بقوة منطقه وحجته . . وقدرته الفائقة على النقاش وذكائه المتقد . . واطلاعه الغزير . . ما دفع بهذه المدرسة دفعات قوية إلى الأمام . . فهم يميلون إلى السلف . . كما أنهم كانوا يجدون فى الحلول الوسط بين الآراء المتعارضة حول الأفكار خير وسيلة لوصول أفكارهم بسهولة ويسر إلى الناس . . لأن أفكارهم تعتمد على العقل . . وتعتمد على النقل أيضًا . . ومن هنا فقد لاءمت أفكارهم الخاصة . . ووجدت سبيلها إلى العامة . . لأنهم لم يصبوا أفكارهم فى قوالب تجهد العقل أو يصعب على الإنسان فهمها، وتأخذهم فى متاهات الفلسفة وسراديبها . .

المهم أن الغزالى . . وقد رفع راية هذه المدرسة . . وجد بعد ذلك فى نفسه دافعًا إلى الوصول إلى شىء عن علامات استفهام حائرة تدور فى ذهنه . . تؤرق أيامه ولياليه . .

اعتصر الشك قلبه . .

أخذ يبحث عن اليقين الذى يرد إلى نفسه سكينتها ، ويعيد إلى روحه الوثابة الهدوء والإطمئنان . .

إنه نفس السؤال الحائر يتردد من جديد .. تتناقل صداه السنون.. أين هو من الحقيقة ؟

إن العلوم التى درسها .. والفلسفة التى استوعبها .. لم تستطع إلا أن تزيد من شقاء نفسه ..

ومن عذاب التساؤل نحل جسمه وضعف..

لقد كان منتهى أمل أبيه الذى كان يجهل القراءة والكتابة .. أن يرى ولديه الغزالى وأحمد من العلماء .. ولكن الموت عاجله دون أن يتم حلمه .. ويعهد إلى أحد الصوفية بولديه .. وها هو قد أصبح عالمًا يشار إليه بالبنان فى بغداد .. قريبًا من الخليفة .. يستشيره فى بعض القضايا السياسية والدينية .. ولكن كل ذلك لم يصرفه عن البحث عن الحقيقة..

لم يكن أمله المال والجاه والسلطان..

إن أمله وحلم خياله هو البحث عن الحقيقة التى يجد قلبه عندها الأمن والسكينة والأمان..

وضاقت حياته بالحياة المترفة التى يحياها فى بغداد..

وقيل إن الذى دفعه إلى الزهد .. وإلى طريق التصوف أخوه أحمد .. فقد روى الزبيدى فى شرح الإحياء أن أخاه دخل عليه يومًا وهو يلقى مواعظه على الناس .. فقال له أخوه:

أخذت بأعضادهم إذ ونـوًا

وخلفك الجهد إذ أسرعوا

وأصبحت تهدى ولا تهتدى

وتسمع وعظًا ولا تسمع

فيا حجر الشحر حتى متى

تسن الحديد ولا تقطع

ويقال إن هذا أيضًا كان دافعًا له إلى الزهد والتقشف . . والبعد عن الناس ثم اتجاهه إلى طريق التصوف . . إن الغزالى يصف هذه الفترة من حياته بقوله:

« نظرت إلى نفسى . . فرأيت كثرة حجبها . . فدخلت الخلوة . . واشتغلت بالرياضة والمجاهدة أربعين يومًا انقدح لى من العلم ما لم يكن عندى أصغر وأرق منه مما كنت أعرفه . . فإذا فيه قوة فقهية . . فرجعت إلى الخلوة ثانيًا أربعين يومًا فانقدح لى علم آخر أرق وأصفى مما حصل عندى أولاً ففرحت به . . ثم نظرت فيه . . فإذا فيه قوة نظرية ، فنظرت فيه فإذا به قوة ممزوجة بغم . . وبه ألحق بأهل العلوم اللدنية . . فقلت إن الكتابة على المحو ليست كالكتابة على الصفاء الأول والطهارة الأولى» . .

وواضح أن الغزالى كان قد أنس إلى التصوف ، ووجد فيه منتهى آماله فقد صفت نفسه . . وشفت روحه . . شعر براحة نفسية

عميقة . . اتضح له أن هذا هو الطريق السليم . . حيث الشفافية والصفاء . . وحيث الأنس باللّه . . وحيث نجد أن الإلهام يفضى به إلى العلم اللدنى . . أى العلم من لدن اللّه جل علاه . .

ليس فى هذا المجال مجال لسفسطة أو جدل عقيم . .

وليس فى هذا المجال مكان للتلاعب بالألفاظ . .

وليس فى هذا المجال مكان لفرد العضلات الفكرية . .

إنما عن هذا الطريق . . الذى ينكشف أمام المريد بالتجربة الذاتية . . ما يجعل مغاليق الأمور تنكشف أمامه . . ويعرف عن طريق التذوق ما لا يخطر على البال . . إذن ما هى النتيجة التى توصل إليها الغزالى؟

لنسمع كلامه فى كتابه «المنقذ من الضلال» :

« . . أنى علمت يقينًا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطريق . . وأخلاقهم أزكى الأخلاق . . بل لو جمع عقل العقلاء . . وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء . . ليغيروا شيئًا من سيرهم وأخلاقهم . . ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلاً . . فإن جميع حركاتهم وسكناتهم . . فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة . .

وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به » . .

لقد ظل الغزالى فى عزلة فترة، ثم قرر أن يخرج إلى الناس . . وأن يستفيد الناس بعلمه ، كما قرر أن يدخل فى معركة فاصلة مع رجال الفلسفة والمشتغلين بها . . ومع رجال الدين الذين يفهمون القشور ولم يتعمقوا فى جوهر الإسلام . . وأن يخوض حربًا قوية ضد الذين بلبلوا أفكار الناس . . وأبعدوا الإسلام عن نقاوته وجلالته وبساطته . .

والغزالى محارب جسور . . وعنده الأسلحة القوية من العلم التى يستطيع بها أن يقهر خصومه . .

صحيح أن خصومه من القوة بمكان . .

وصحيح أن أعداءه من الممكن أن يتألبوا ضده . .

ومع ذلك فإيمان الغزالى بأن له رسالة . . وأنه أحد المجددين العظام فى الإسلام . . كل ذلك دفعه أن يخوض الحرب ضد كل هؤلاء الذين صبغوا الحياة الفكرية والثقافية والدينية بطابع أبعد ما يكون عن روح الإسلام السمح . .

إنه سيعود إلى التدريس . .

وسيعود ليبشر بقيم الإسلام النبيلة . .

لقد خرج من بغداد عام ٤٨٨هـ وحج بيت الله الحرام وتوجه إلى دمشق وزار المسجد الأقصى ، ورحل إلى الإسكندرية ثم عاد إلى خراسان مهبط رأسه . . زاهدًا . . وتولى الغزالى الإشراف على

المدرسة النظامية بنيسابور. ولكن بعد سنة من توليه رئاسة هذه المدرسة.. أى عام ٥٠٠ هجرية .. يقتل الوزير «فخر الملك» .. ابن نظام الملك .. مما جعل الغزالى يترك المدرسة النظامية ويتوجه إلى بلدته طوس .. ورفض أن يعود إلى المدرسة النظامية .. حيث عكف على التدريس .. وعلى التأليف..

ويروى أن حياة هذا الإمام العظيم كان كلها إثراء للفكر والحياة إلى أن انتقل إلى جوار ربه فى ١٤ جمادى الآخرة من عام ٥٠٥ هجرية.. وكان ذلك فى صباح يوم الإثنين ، حيث صلى الصبح ثم طلب كفنه وقبَّله ووضعه على عينيه .. واستقبل القبلة ، ثم مد رجليه .. وقال : سمعًا وطاعة للدخول على الملك .. وفاضت روحه إلى بارئها !!

* * * * *